الشيخ إبراهيم بيوض مربيا

د. مصطفى باجو *

تمهيـــــد:

اشتهر الشيخ إبراهيم بيوض رحمه الله بخصال عديدة، ومواهب نادرة أهلته ليكون الزعيم الروحي، والموجه الاجتماعي، والعالم الموسوعي، والقائد السياسي لأمته، لفترة من الزمن امتدت ستين سنة كاملة.

والشيخ إبراهيم بيوض، علم بارز من أبرز شخصيات الإصلاح الديني والوطني في الجزائر في القرن العشرين. قضى حياته ببلده القرارة بمنطقة وادي ميزاب جنوب الجزائر. فيها ولد سنة 1899م وتوفي بها سنة 1981م. وتعلم على يد مشايخ البلدة، ومن أهم أساتذته الشيخ الحاج عمر بن يحي، والشيخ الحاج إبراهيم الأبريكي.

و لم ينتقل للتعلم خارج موطنه، بل كان عصاميا بنى نفسه بنفسه، حتى بلغ في العلم درجة عالية. وأنشأ معهد الحياة ومدارس عديدة لنشر العلم والفضيلة، وحذا حذوه أهل الغيرة والفضل بميزاب وخارجها، حتى عم نفع هذه المدارس وانتشر نورها في مختلف مدن الجزائر شمالا وجنوبا.

ولا تسع هذه الصفحات لسرد تفاصيل جهوده في جميع المجالات. فقد كفى المؤونة في هذا مؤرخون ودارسون عديدون. وفي مقدمتهم الشيخ محمد علي دبوز في كتبه التاريخية: نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. وأعلام الإصلاح في الجزائر(1).

---

* أستاذ محاضر في الأصول وآيات الأحكام. بكلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. قسنطينة.

1) – حول نشأة الشيخ بيوض، ومراحل

وفي هذه الدراسة رأيت تخصيص الحديث بجانب هام من تلك الجوانب، تمثل في مجال التربية.

عرف الشيخ بيوض بتعدد الجوانب البارزة في شخصيته، فقد كان واعظا مرشدا، وفقيها مجتهدا، وزعيما قائدا، وسياسيا محنكا، ومصلحا رائدا. كما كان مربيا حكيما، ومعلما قديرا.

وكل من عاشر الشيخ تلميذا كان أم أستاذا شهد له بالكفاءة المتميزة في مجال التربية، إذ جمع إلى جوانب شخصيته العديدة كونه مربيا من الطراز الأول، أوتي القدرة على تكوين الإنسان، وتنشئة الأجيال.

ولئن كان ثمة من نازعه في خصائصه الأخرى بدافع الجهل حينا والحسد أحيانا، فإنه لم يختلف اثنان في كفاءته التربوية ومقدرته التعليمية الفريدة؛ لما استجمع من خصال المربي الناجح والمعلم القدير.

والدليل الأكبر على هذه المقدرة نجاحه في رسالته، لأن مقياس كفاءة المربي هو تحقيقه لغايته التربوية. والنتيجة التي حققها الشيخ بيوض في المجتمع بعامة، وفي الجيل الذي أنشأه بخاصة أكبر شاهد على هذا النجاح.

مفهوم التربية:

التربية من المصطلحات التي كثر تداولها على لسان الناس عامة، ويقصد بها التنشئة والتكوين. وأصلها في اللغة من ربا الشيء إذا نما وازداد، ومنه قول الحق تبارك وتعالى: «وترى الارض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج

تعلمه وتكوينه، ينظر: محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ط1. المطبعة العربية، الجزائر. 1389هـ/1969م. = أعلام الإصلاح في الجزائر، ج1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1394هـ/1974م. = ج2، 1396هـ/1976م = ج3، 1398هـ/1978م. = ج4، 1400هـ/1980م. أيضا: جمعية التراث، في رحاب القرآن، المهرجان والتأبين، وفيه خطب ومقالات حول تاريخ الشيخ بيوض.

بهـــيج»[1]. فمعناها تنمية الشيء ورعايته والحفـــاظ عليه، ولذلك يقال لمالك الشيء رب، لأنـــه يـــتولاه بالـــرعاية والحفـــظ والنماء[2].

فالتربية اصطلاح درج عليه المحدثون، وغلب معناه على رعاية الإنسان وتنشئته، بتفتـــيق مواهـــبه و تنمية قدراته العقلية، وتوسيع مداركه العلمية، مع تهذيب ميوله النفسية وتزكية طباعه الخلقية.

ولأجـــل هذه الغاية السامية والخطيرة أنشـــئت المؤسسات المختلفة من مدارس وثانويـــات وجامعـــات؛ لبناء الإنسان الصالح بناء يتناسق وفلسفة التوجيه الذي يقوم عليه نظام المجتمع أو الأمة أو الدولة التي أنشأت تلك المؤسسات.

هذا عن المعنى العام للتربية، وفي المجتمع المســـلم يتخذ المفهوم معنى أكثر تحديدا، ويتمثل في تنشئة الجيل تنشئة إسلامية قلبا وقالـــبا. ويتجسد ذلك في «المفاهيم التي يرتـــبط بعضـــها ببعض في إطار فكري واحد، يستند إلى المبادئ والقيم التي أتى بهـــا الإســـلام، والـــتي ترسم عددا من الإجـــراءات والطـــرائق العملية؛ يؤدي تنفـــيذها إلى أن يسلك سالكها سلوكا يتفق وعقيدة الإسلام»[3]

---

1) – سورة الحج، آية5.

2) – يـــنظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة ربى. ومما جاء فيه: ربا الشيء ربوا ورباء: زاد ونما. وأربيته: نميته. وفي التنـــزيل العزيز «و يـــربي الصدقات» وأربى الرجل في الربا يربي. والأصـــل في الربا الزيادة، من ربا المال إذا زاد وارتفع. وهو في الشرع: الزيادة على أصل المال مـــن غير عقد تبايع. وربوت في بني فلان أربو: نشأت فيهم. وربيت فلانا أربيه تربية، وتربيته، وربـــته، وربـــته:بمعنى واحد. قال الجوهري: ربيته تربية، وتربيته: أي غذوته. قال: هذا لكل ما ينمي كالولد والزرع ونحوه.

3) – د. ســـعيد إسماعـــيل علي، الأصول الإســـلامية للتربية. دار الفكر العربي، القاهرة.

والتربية بهذا المفهوم تشمل بناء الإنسان من جميع جوانبه الروحية والعقلية والنفسية والخلقية والبدنية وفق تعاليم القرآن والسنة النبوية إذ هما المصدر الأساس والسليم لتحقيق هذه الغاية النبيلة.

التربية و الإصلاح:

قد يقع بعض اللبس بين مفهوم التربية ومفهوم الإصلاح، نظرا للتداخل الحاصل بينهما في بعض المواضع، فالتربية يقصد بها بناء الإنسان السوي الفاعل الإيجابي. والإصلاح يعنى به إزالة الخلل الطارئ على هذا الإنسان ليعود إلى حالته السوية ويواصل مساره في الحياة بعمارتها ونشر الخير فيها، ومعناه في مفهومنا نحن المسلمين أن يسير الإنسان وفق منهج الله، وهو دين الإسلام. هذا الدين الذي فسره الرسول صلى الله عليه وسلم في إحدى جوامع الكلم: «قل آمنت بالله ثم استقم»(1).

وقد كان الشيخ على قناعة تامة بأهمية التربية لإصلاح الأوضاع. وظهر موقفه جليا في مناقشة جرت بينه وبين الشيخ أبي اليقظان حول أنجع السبل للإصلاح: التربية والتعليم أم الصحافة والإعلام.

كان ذلك في سنة 1925 وكان النقاش طويلا بين الشيخين، وانتهى إلى اختيار كل واحد طريقته التي يراها ناجعة

1412هـ/1992م. ص11.

1) – الحديث رواه أحمد في مسند المكيين ونصه «حدثنا وكيع وأبو معاوية قالا حدثنا هشام بن عروة عن أبيه عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك قال أبو معاوية بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم» رقم 14869 ترقيم العالمية. وورد الحديث بألفاظ متقاربة عند: الترمذي، كتاب الزهد، رقم 2334ترقيم العالمية. وابن ماجه، كتاب الفتن، رقم 3962ترقيم العالمية. والدارمي، كتاب الرقاق، رقم 2594ترقيم العالمية.

لإحداث التغيير المنشود.

ثم بينت الأيام صواب اختيار الشيخ بيوض، وجدوى الخط الذي ارتضاه. مع إقراره بضرورة الاهتمام بالصحافة التي عني بها الشيخ أبو اليقظان. وآزره فيها الشيخ بيوض ماديا ومعنويا، وأمده بالكتابة فيها بعدة مقالات.

فكان الشيخ بيوض سندا للجهود الخارقة التي بذلها أبو اليقظان فحققت صحافته ذلك الصيت الداوي، الذي أربك به أقدام المستعمر، ومهد الطريق لاستنارة الفكر وإثارة الشعور للعمل الوطني. وعلى هذا العمل الوطني تضافرت جهود المخلصين من رجال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وأبطال الحركة الوطنية، حتى توج بنشوب الثورة التحريرية المباركة.

وقد عمت جهود الشيخ بيوض الإصلاحية كل فئات المجتمع من براعم ناشئة وشباب صاعد، وكهول وشيوخ بلغوا من العمر عتيا. و لم يخص برسالته ذكورا دون إناث، ولا مثقفين دون عامة الناس.

وفي كل هذه الفئات كان يربي ويصلح في نفس الوقت، إذ يبني النفوس على نهج الاستقامة ويصلح الخلل الذي تراكم في فئات المجتمع، في التصور والسلوك، من جراء عصور الركود العلمي والجمود الفكري في بلاد المسلمين، حتى غدوا لقمة سائغة للمستعمرين.

ولئن كان هذا التداخل واردا في الواقع الميداني، فإن التمييز بين المصطلحين يعد أمرا ضروريا تقتضيه المنهجية العلمية في جانب الدراسة والتحليل النظري.

فكان لزاما علينا التقيد بالمعنى الاصطلاحي للتربية وهي بناء الإنسان في أول مراحل نشأته. لذا فإن البحث يركز على عناية الشيخ بيوض بالجيل الصاعد، وكيف أخذ بيده ليحيا حياة الإسلام

الصحيح، وينشأ جيلا صالحا يعمر الأرض بالخير ويتفيأ الناس ظلال نفعه، ويكون كالغيث أينما وقع نفع.

معالم شخصية الشيخ بيوض التربوية:

يمكن رصد معالم شخصية الشيخ بيوض التربوية في العناصر التي استقى منها مادته متمثلة في مصادره المعرفية. وأيضا في مميزاته الذاتية التي تعود إلى طبيعة شخصيته، وأخيرا ما يعزى إلى طريقته في التربية والتعليم.

1. مصادره المعرفية:

أ= يتصدر القرآن الكريم والسنة النبوية قائمة المصادر التي اعتمدها الشيخ بيوض في تربيته وتكوينه للأجيال. ساعده على ذلك توليه دروس تفسير القرآن الكريم، واستمراره في هذا التفسير مدة قاربت الخمسين عاما، إذ بدأه سنة1935 حتى ختمه كاملا سنة 1980م(1).

ب= وله اطلاع واسع على السنة والسيرة النبوية(2)، وهما منبع غزير لمن يريد إنشاء جيل يقتدي بالرسول الكريم،

---

1) – كانت بداية تفسير الشيخ بيوض للقرآن، سنة 1921، إذ فسر جزء عم إلى سورة الناس. ثم شرع في تفسير القرآن كاملا، يوم 1محرم 1354هـ الموافق لـ6 أفريل 1935م. واستمر فيه حتى ختمه ليلة الثلاثاء 26 ربيع الأول 1400هـ الموافق لـ 13 فبراير 1980م.

ينظر: في رحاب القرآن، المهرجان والتأبين. لقاء التلفزيون الجزائري مع الشيخ بيوض. ص 73. خطبة الشيخ عدون في مهرجان ختم تفسير القرآن. ص19.

2) – تولى الشيخ بيوض تدريس كتاب فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، وختمه في احتفال أقيم له بمسجد القرارة سنة 1945م. كما شرح قبله مسند الربيع بن حبيب. ينظر: في رحاب القرآن، المهرجان والتأبين. حوار التلفزيون الجزائري مع الشيخ بيوض ص77. وكلمة الشيخ عدون في مهرجان ختم تفسير القرآن. ص17.

ويتأسى به كما أرشد القرآن ﴿لقد كان لكم في رسول الله إسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾(1).

ج= كما عني الشيخ بيوض بتاريخ الصحابة وهم الصدر الأول من أعلام الإسلام رباهم الرسول صلى الله عليه وسلم فأحسن تربيتهم، وغدوا مثلا عليا للمسلمين، باعتبارهم بشرا غير معصومين، ولكنهم جسدوا تعاليم القرآن وتوجيهات الرسول على خير وجه وأحسن مثال.

د= وللشيخ بيوض سعة اطلاع على تاريخ الإسلام عموما، وتاريخ الزعماء والمربين والصالحين خصوصا. وهو ما أمده برصيد معرفي ونماذج واقعية احتذاها سواء لتمثل خصائص المربي الناجح، أم لتكوين النشء الصالح.

هـ= ولم يغفل الاستفادة من واقع المسلمين المعيش، والذي كان في أدنى دركات التدني والبعد عن روح الإسلام، إلا التمسك ببعض القشور والمظاهر مما لا يسمن ولا يغني من جوع، ولا يمثل جوهر الدين الذي جاء به الرسول المعلم وأنشأ عليه صحابته الكرام.

و= وعني الشيخ كذلك بالتتبع المستمر لمجريات الأحداث في العالم من حوله بدءا بأرض الوطن، ومرورا بقضايا العالم الإسلامي والعربي، وانتهاء بالعالم الفسيح(2). واستخلاص الدروس والعبر

---

1) – سورة الأحزاب، آية21.

2) – يذكر الشيخ اهتمامه واهتمام مشايخه بالصحافة العربية وتلهفهم للاطلاع على ما ينشر في المشرق العربي من مجلات فكرية وسياسية. مما مكنه من التصور الشامل والسليم لأوضاع العالم الإسلامي وجهود المصلحين للخروج به من مأزق التخلف والاستعمار إلى رحاب النهضة والتحرر. ينظر: لقاء التلفزيون مع الشيخ، في رحاب القرآن. المهرجان والتأبين. ص71.

منها لتوظيفها في مجال التربية، تنبيها إلى سنن الله في الكون والمجتمعات، وتحذيرا من مغبة مخالفة أمره واتباع الشهوات.

ز= و لم تقتصر مصادر معرفته على معين اللغة العربية على سعته وغزارته، فقد كان له اطلاع على لغة المستعمر ممثلة في الثقافة الفرنسية، أفادته في توسيع دائرة معارفه بالإطلاع على القوانين والأعراف التي تنظم سير تلك المجتمعات. واستطاع بذكائه استثمارها في مجال التربية والتكوين بعقد مقارنات بين المجتمع الفرنسي وغيره من المجتمعات الغربية وبين المجتمع الإسلامي في نمط الحياة والأعراف والعلاقات الاجتماعية، وبيان سمو التشريع الإسلامي على القوانين الوضعية مهما ادعى أصحابها من ضمان لحقوق الإنسان، وتحقيق للحرية والعدالة والسعادة التي ظل ينشدها منذ فجر التاريخ.

ح= استفادته من مدرسة الأسفار، وهي مدرسة ميدانية بليغة الأثر في تكوين الفرد العلمي والعقلي وتأهيله النفسي والاجتماعي

وقد سنحت الفرصة للشيخ بيوض للتزود من مدرسة الأسفار منذ نعومة أظفاره، وكانت أسفاره متميزة إذ خصه شيخه الحاج عمر بن يحي بمرافقته معه في رحلاته العلمية إلى وارجلان. وفيها يمكث شهرين كاملين.

وبعد أن شب عن الطوق عقد الرحلات المختلفة إلى شمال الجزائر وشرقها، وإلى تونس، وكانت له فيها استفادات وإفادات متنوعة، فتحت أمامه آفاقا معرفية وفكرا جديدا وكون فيها علاقات مع كثير من المفكرين والعلماء العاملين في مجال التربية والإصلاح.

يصف الشيخ إحدى هذه الرحلات إلى تونس قائلا: «في أول فبراير عام1921 م اطلعت على معاهد تونس العلمية وحضرت دروسا كثيرة في جامع

الزيتونة، وتعرفت إلى علمائها البارزين في حلق دروسهم، وشاهدت تونس في عنفوان جهادها السياسي، واجتمعت بكثير من قادتها السياسيين أركان حزب الدستور التونسي وسمعت خطبهم»[1].

مميزاته الشخصية:

حبا الله الشيخ بيوض بخصائص عقلية وفكرية ونفسية أهلته ليكون المربي البصير والمعلم القدير، فكانت الأجيال طوع بنانه، ترد إليه صادية فيرويها ويبنيها، ثم تصدر عنه وكأنما أنشئت خلقا آخر، خلق تفجرت طاقته وتفتقت مواهبه وانطلق مشعل نور ومبعث خير أينما حل وارتحل.

والذي مكن الشيخ من نجاح عمليته التربوية صفات عديدة. نوجز منها:

أ= سعة أفقه العلمي في اللغة وفنونها والشريعة وعلومها، واطلاع على الجديد في العلوم الحديثة والتربية والقانون.

ب= حافظة قوية تنجده بما يشاء من معلومات وشواهد في الوقت المناسب. وتلك ولا ريب ميزة تزيد المربي منزلة في القلوب وتمد كلامه قوة تأثير وإقناع في عقول وقلوب المستمعين.

ج= حسن استثماره لحوادث التاريخ وقضايا الواقع في مختلف المواضيع. واهتمامه بالمناسبات العادية والطارئة، الخاصة والعامة، الدينية والوطنية. وتوظيفها في العملية التربوية، وسواء في ذلك الدروس الخاصة بالطلبة أم العامة للقاعدة العريضة من الناس.

د= ذكاء حاد في لمح النكتة وتصيد الخاطرة، والإشراف على حال المستمع وتفهم منزلته في الفهم وإعطائه ما يناسب حاله ومستواه الإدراكي. وكثيرا ما كان يردد في كلامه مقولة "العيون مغارف الكلام". كما كان شديد التبرم

---

1) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. ج2، ص 188.

والضيق ممن لا يعير اهتماما للتحصيل ومتابعة درس الأستاذ، وقد يستوقفه أمام الملإ لتوبيخه إذا اقتضت الضرورة ذلك، ويتمثل بقولة الحكيم "العلم والوطوطة لا يجتمعان"(1).

وهذا ما يدعو إلى توضيح طريقة الشيخ بيوض في دروسه:

طريقته في التدريس:

أ= لم يكن الشيخ معتمدا على مجرد مواهبه وقدراته وسعة علمه لنجاح عمله. فذلك شأن من أدركه الغرور والعجب، وهو أول مهاوي السقوط التي يتردى فيها كثير من الموهوبين.

بل كان حبل الشيخ موصولا بالله معتمدا عليه في كل دروسه، إذ يفتتح درسه بدعائه الجميل، يقول بعد الاستعاذة والبسملة والحمدلة والتصلية:

"اللهم أكرمنا بنور الفهم وأخرجنا من ظلمات الوهم، اللهم افتح لنا حكمتك وانشر علينا رحمتك، ويسر لنا من خزائن علمك يا ذا الجلال والإكرام. ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب يا أرحم الراحمين"

ويشعر هذا الدعاء المعلم والمتعلم بالحاجة إلى عون الله وتوفيقه في عملية التعليم، وتلك من أسباب التربية الناجحة التي التزمها الأساتذة في معهد الحياة تأسيا بسير السلف الصالح(2).

---

1) – هذه كلمة قالها أبو سليمان أيوب بن إسماعيل لتلميذه أبي عمرو خليفة السوفي المارغني. مودعا إياه بعد نهاية مرحلة التعلم "ياعثمان، العلم والوطوطة لا يجتمعان". ينظر: أبو العباس الدرجيني، طبقات المشايخ بالمغرب، تحقيق إبراهيم طلاي، دارالبعث. قسنطينة. ج2 ، ص 484.

2) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، صفحات 50/ 51.

ويرى الشيخ بيوض أن لدعاء الاستفتاح هذا سرا في التوفيق الذي يجده أثناء الدرس، وما يفتح الله عليه من معان وأسرار لم يقرأها من قبل ولا انتبه إليها[1].وكثيرا ما يصرح بذلك في حينه بقوله "هذه النكتة بنت اللحظة"[2].

ب= ومن شروط نجاح المربي إقباله على رسالته بحب وشوق. وقد كان الشيخ أثناء دروسه تغمره نشوة عارمة وغبطة كبيرة وهو يقوم بمهمة مقدسة هي تنوير العقول وتزكية النفوس. وقد صرح بهذا الشعور الذي يتملكه خلال إلقائه لدروسه، وقال بأن تلك اللحظات هي ألذ وأمتع لحظات حياته، ولا تعدلها إلا لحظات الجلوس إلى كتاب للمطالعة والبحث والاستزادة من العلم[3].

ج= التدرج في تبيين الحقائق من البسيط إلى المعقد. ومن المسلم به إلى المختلف فيه. ومن العام إلى الخاص.

د= الاعتماد على الأمثلة الواقعية. استثمارا لثقافته الموسوعية وإلمامه بمصادر الشريعة والأدب والتاريخ والواقع المحلي والوطني والعالمي.

فلسفة أوأسس التربية عند الشيخ بيوض:

انطلاقا من الفهم الصحيح للتربية بأنها البناء المتكامل للإنسان وفق منهج القرآن فإن الشيخ بيوض عني عناية خاصة بهذا التكامل في عمله التربوي، إذ كانت

---

1) – ينظر: في رحاب القرآن" مهرجان تفسير القرآن، لقاء مسجل مع الشيخ بيوض، حول طريقته في التفسير.

2) – ينظر تفسير الشيخ بيوض "في رحاب القرآن" الأجزاء المطبوعة، وفي آخر كل جزء فهرس بالمسائل التي صرح فيها الشيخ بأنها بنت اللحظة.

3) – ينظر: في رحاب القرآن، المهرجان والتأبين. لقاء مسجل مع الشيخ بيوض، حول طريقته في التفسير. ص75/74.

برامج الدراسة في مدارسه التي أنشأها بنفسه أو بواسطة تلاميذه الذين آزروه في جهاده الإصلاحي، مبنية على رعاية جوانب الإنسان المختلفة، متمثلة في الهرم الكبير: العقل والروح والجسد. فأعطى كل طرف حقه من الرعاية والاهتمام، غذاء ودواء.

ونال نصيب الأسد إحياء معاني القرآن في النفوس بترسيخ العقيدة وتفعيلها، واستخلاص العبر من قصص القرآن. ومعالجة الواقع على ضوء توجيهات القرآن.

وقد تمثل الشيخ بمقولة الإمام ابن باديس «نريد أن ننشئ جيلا على القرآن من أول يوم، ونوجهه إلى القرآن في كل يوم»(1).

كما كتب في جريدة "وادي ميزاب" اليقظانية، ثلاث مقالات ضافية حول "واجب الآباء نحو الأبناء" أجلى فيهما حقيقة التربية ودور الأبوين في تنشئة أولادهما. وافتتح المقال بقوله: «الصبي أمانة بيد أبيه أو القيم عليه، وهو المسؤول عنه أمام الله والناس، وعليه وحده يتوقف مستقبل ابنه؛ صحة أو سقما، علما أو جهلا، سعادة أو شقاوة. فيجب عليه في آن واحد تربية جسمه وعقله وخلقه، وبذلك تتم سعادته وسعادة أمته به، بل وسعادة الإنسانية جمعاء، وبإهمال شيء من ذلك يشقى وتشقى أمته به، بل والانسانية كلها»(2).

وعالج واقع التربية وأخطاء الآباء في

---

1) – المصدر السابق.

2) – محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5 ص89. والمقالات نشرت في جريدة وادي ميزاب، عدد 19 بتاريخ11فبراير 1927. عدد 20 بتاريخ 18 فبراير 1927. وعدد 21 بتاريخ 25 فبراير 1927م. وانظر مقالين كاملين في المصدر السابق، صفحات 89 /97.

أدائهم لهذه الرسالة الخطيرة، بين المسرفين في إطلاق الحبل على الغارب، بدافع الحب الجنوني للأبناء، وبين المتنطعين في القسوة والتشديد، بسبب الجهل بخصائص النفس، والبعد عن تعاليم الدين السمحاء. وعواقب هذا التطرف وآثاره المدمرة على الفرد والمجتمع، وبين المنهج السديد وهو التوسط في كل الأحوال(1).

وقد صرح الشيخ بهدفه من التربية بقوله كذلك: «إن غرضنا أن ننشئ لهذه الأمة في طورها الجديد جيلا كامل العدة للنضال والكفاح في شتى الميادين، فيحدث في الأمة انقلابا كبيرا. ويدفع بها خطوات واسعة إلى مطمحها الأسمى. ولن نستطيع ذلك ولن نبلغ غرضنا منه حتى نضيف إلى تنوير العقول بالعلم وتزكية النفوس بالدين، التأليف بين القلوب بالحب الراسخ والود المكين. فألف مثقف في أمة تنافرت قلوبهم، وتخالفت أغراضهم، وتوزعتهم الأهواء والشهوات، لن يكونوا على الأمة إلا وبالا. ومن سعادتها ألا يكونوا. لكن مائة متعلم جمع الله شملهم وألف بين قلوبهم، فأحب بعضهم بعضا، فاتحدت مبادئهم وغاياتهم، وإن اختلفت منازلهم وبيئاتهم، يحي الله بهم الأمة، ويخرجها من الظلمات إلى النور....إننا بهذا وحده يمكننا أن نطمئن إلى أننا بنينا لعز الأمة ركنا قويا، ووضعنا لسعادتها دعامة متينة، وأننا قدمنا عملا سيظهر أثره قريبا أوبعيدا»(2).

وتنوعت البرامج التعليمية لتلبي هذه المطالب وتحقق التكامل المطلوب في بناء الإنسان المتوازن السليم. و لم يغفل حتى الجوانب الفنية من مسرح وأناشيد،

---

1) – المصدر السابق.

2) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، صفحات 197/ 198.

وجمعيات أدبية وكشفية ورياضية، ورحلات استطلاعية وحفلات ترفيهية. وكل ذلك في إطار أحكام الشرع وهدي الكتاب وسنة الرسول الكريم.

ويعتبر الشيخ أن إيجاد جيل من الشباب المثقف الواعي من أفضل أنواع الجهاد، فقد طلب منه مغادرة الجزائر أيام المحنة الكبرى خلال الثورة التحريرية، فأجاب بقوله: «أما إن كانت حكومتنا تحتاجني لعمل هناك لسد فراغ مثلا لا يسده غيري، فهذا واجب علي وسألبي النداء، وأزم حقائبي من الآن. وأما إن كان لمجرد الخوف علي فأخرج فارا لأمكث في تونس أو في المغرب مع عشرات آلاف اللاجئين الذين هم كل على الحكومة، فإني لا أرتضي لنفسي هذه المنزلة. فمكثي هنا وعملي هنا ومشاركتي إخواني الجزائريين سراءهم وضراءهم خير لي من الدنيا والأخرى... ثم إن تركي لهذه المؤسسات التي هي مما تعتز به الجزائر وتفتخر به وتنتفع به، يعرضها إلى خطر محقق. ولي بالله ثقة أن يحفظني ويحميني ويحفظني برعايته وعنايته... وهكذا بقيت إلى اليوم سالما، وربحت من مكثي بالجزائر ربحا وفيرا لا هو درهم ولا دينار. وإنما هو العدد العديد من الشباب المثقف بالعربية المتربي بالإسلام. وكفى بهذا ربحا»[1].

الشيخ بيوض والنخبة المثقفة:

يرى الشيخ بيوض أن المجتمع لا يقوم إلا برجال مثقفين يعضدون علماء عاملين، ويسعون لتكوين قاعدة شعبية واعية يبثون فيها روح العلم والمعرفة والخلق والفضيلة. واحتضان القاعدة الشعبية للنخبة المثقفة يعتبر الضمانة الأكيدة لاستمرار عملية التغيير والإصلاح.

---

1) – الشيخ إبراهيم بيوض، من أعمالي في الثورة. صفحات 43/42.

فهو يؤمن بتكامل القمة مع القاعدة. وتعاون الجميع على الرقي بالأمة إلى مصاف التطور والازدهار في كنف الدين الحنيف.

وقد أوضح الشيخ نظرته إلى تكوين النخبة المثقفة باعتبارها حجر الزاوية في هذا التغيير. وبين أن طبيعة العلاقة بين أفرادها، ومدى وعيها بدورها هو الشرط الأول لفعاليتها وتأثيرها في الأمة.

فقد تجلى في هذا مفهوم الشيخ بيوض لإعداد الرجل الواحد مع العناية بتوعية الجمهور العريض. والسعي لعدم الإخلال بتوازن المنهجين في مجال الدعوة والإصلاح. منهج الاعتماد على النخبة، ومنهج التعبئة الجماهيرية.

وقد زكت أحداث كثيرة في العالم صواب الجمع بين الطريقتين. وهو الخط الذي تبناه الشيخ بيوض.

يقول أحد خريجي معهد الحياة: «وقد أسهم هذا المعهد في إنارة الفكر الإسلامي وإنماء الشعور الديني، وإذكاء الحس الوطني في نفوس الشباب الذي كان إما متسكعا أعرض عن هذه الحياة وعافها، وزهد فيها، معتقدا أنها خلقت للآخرين، وأن حظه سيعظم في الآخرة بقدر زهده في الدنيا. أو متهتكا تحللت أخلاقه من طيلة احتكاكه بالأجانب الذين غزوا وطنه وحرموه نور العلم والمعرفة، واضطروه في ظروف معاشه إلى غربة وعزبة فرضت عليه.

وقد غير معهد الحياة ومربوه نظرة الشباب إلى الحياة من نظرة استسلامية رضيت بالأمر الواقع والمصير المحتوم، تكاد تعتقد أن وجود حكم أجنبي متسلط على الجزائر قضاء من الله الذي لا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه، وأن ذلك لا يمكن أن يكون إلا بإرادة الله وحده. وأصبحت نظرتهم بعد تخرجهم من المعهد نظرة سليمة تعتقد أن الجزائر تعيش ظروفا وأوضاعا غير طبيعية، وأن ليل الاستعمار

-مهما طال- فمصيره إلى الزوال، وأن قصر مدته أو طولها مرهون بيد أبناء الجزائر، وأن نصر الله لا ينزل عفوا من السماء، بل هو مرهون بشروط قررها القرآن حين قال: ﴿يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت اقدامكم(7)﴾(1). وأصبحوا يفهمون فهما سليما قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾(2). ويعتقدون أن الدين الصحيح لا يضيق بالعلم الصحيح، والدنيا والآخرة ليستا ضرتين. وأن العمل لهما جميعا ممكن إذا سلمت النية وكان العمل وفق ما تأمر به الشريعة الإسلامية السليمة، وأن الزهد في الدنيا لا يكون بالهروب منها بل بامتلاكها وأخذها بقوة واستخدامها في كل ما يعود بالخير على الدين والوطن. وجعلهما وسيلة لغايات نبيلة خالدة. وأعلنوا حربا لا هوادة فيها على التحلل الخلقي الذي بدأ يدب في أوساط الجهال من الشباب، سيما المغتربين. وأعاد معهد الحياة إلى الأذهان تلك الصورة الناصعة للمسلم كما يريده الله، ورفعوا مشاعل النور والإصلاح في مجتمع، كان كل ما فيه يدعو إلى اليأس ويبعث على القنوط، ويقتل الأمل في النفوس، وأناروا الطريق وسط ليل من الجهل وتحت حكم عسكري ظالم.

ولن يستطيع إنسان مهما أوتي من فصاحة وبيان أن يأتي على وصف التغيير الجذري الذي أحدثه الإصلاح ومعهد الحياة في جنوب الجزائر ووادي ميزاب على الأخص. كما لا يستطيع أبناؤنا اليوم أن يقدروا عظم ذلك المجهود إلا إذا جعلوه في إطاره التاريخي الصحيح»(3)

---

1) – سورة محمد، آية7.

2) – سورة الرعد، آية11.

3) – بحث حول تاريخ داخلية الحياة. أعد بمناسبة الذكرى السبعين لنشأة معهد الحياة، من

ميادين التربية عند الشيخ بيوض:

تعددت مجالات العمل التربوي عند الشيخ بيوض، فلم تكن قاصرة على المؤسسات التقليدية التي تعارف الناس حصر التربية فيها وهي المدارس والمعاهد. بل تعداها إلى منابر الاتصال بالناس عامة، ومن ضمن هؤلاء نجد النشء الصاعد حاضرا حيث توجه إليه التعاليم ويعنى بإرشاده ورعاية تكوينه الديني، والخلقي والاجتماعي، والعملي في كل ما يجعل منه جيلا صالحا، وشبابا مسلما عقيدة وقولا وعملا.

ومن مجالات الشيخ للتربية دروس المسجد، في تفسير القرآن الكريم، إذ كان حريصا على حضور الطلبة هذه الدروس، ولهم فيه مجلس الصدارة دون عامة الناس. فيوجه الخطاب إليهم أساسا، ثم تعم فائدته غيرهم من عمار المسجد.

وقد صرح غير ما مرة بأن من يهمه من الحاضرين أولا وقبل كل شيء هم طلبة العلم. لأنهم معقد الأمل لإحداث التغيير المنشود ورفع راية الإصلاح وريادة المجتمع والتكفل بمشاكل الناس وتوجيههم والأخذ بأيديهم إلى سبيل الرشاد.

كما لم يغفل الشيخ بيوض استغلال المناسبات الدينية والعلمية والوطنية، والأفراح والأعراس المحلية والاجتماعات العامة. بل كان له في المآتم والمواقف الأليمة والحرجة، فرص ثمينة للتربية والتوجيه وغرس قيم الخير والفضيلة ومحاربة الفساد والرذيلة في النفوس بعامة، ونفوس الشباب على وجه الخصوص[1].ولكن المجال الرئيس للتربية

أحد خريجي المعهد. البحث مرقون بحوزتي. ص 2.

1) – يرجع إلى درس الشيخ بيوض حول فتنة وارجلان سنة 1960م. وفيه بيان دعائم الوحدة الإسلامية، والتحذير من عوامل

عند الشيخ كان في معقله الشامخ "معهد الحياة". الذي تولى التدريس فيه منذ إنشائه سنة 1925 و لم يتخل عنه إلى أواخر الأربعينيات، حين اطمأن إلى وجود خلف صالح تدرب تحت سمع الشيخ وبصره، فوجد فيه الكفاية لحمل الراية بقوة وأمانة.

وبقيت للشيخ دروس خاصة بأبنائه الذين أشرفوا على نهاية سنوات الدراسة بمعهد الحياة، حيث يزودهم بما ينفعهم من نصائح وتوجيهات تملأ قلوبهم إيمانا ويقينا بشرف الرسالة التي هم مقبلون عليها حين يخوضون غمار الحياة ويتولون مهام الإرشاد والتوجيه في بلدانهم، ويتقلدون المسؤوليات في مختلف المواقع، في التعليم والإدارة والتجارة والصناعة. فيوصي كل واحد أن يكون رسول خير وقدوة تشع بقيم الإسلام وتحببه للناس من خلال المعاملة قبل الكلام، لأن خطاب الفعل أبلغ من معسول الحديث الذي لا يصحبه عمل. بل يغدو حجة على صاحبه أمام الناس وبين يدي الخالق يوم الجزاء.

على أن صلة الشيخ بتلاميذه لم تنقطع حتى نهاية عمره، فقد ظلت دروس التفسير والمناسبات المختلفة همزة الوصل العلمية بينه وبينهم إلى آخر أيامه. أما اهتمامه بهم ومتابعته لمسيرتهم ورعايته لشؤونهم فكان شغله الشاغل على مر السنين. يفرح لنجاحهم ويحزنه ما يصيبهم، و لم ينفك عن ذلك حتى أقعده المرض في أواخر عمره.

الرسالة التربوية لمعهد الحياة:

تجلت رسالة الشيخ بيوض التربوية

تصدعها. والدرس كانت إثر جنازة رجل قتل ظلما بتحريض فرنسا لإيقاع الفتنة بين الجزائريين، واتخاذ الاختلاف المذهبي ذريعة لذلك. وانظر أيضا: الشيخ إبراهيم بيوض، أعمالي في الثورة. نشر جمعية التراث، ص123.

بوضـــوح من خلال إنشائه لمعهد الحياة اعـــتقادا منه أنه أجدى وسيلة لإحداث التغيير المنشود في المجتمع.

وقـــد كان التعليم في مراحله الأولى محصورا في الكتاتيب. المعروفة في ميزاب باســـم "المحاضـــر". ثم أدخـــل أنصار التحديث، -ومنهم الشيخ بيوض ورفاقه- نظـــام التعليم العصري باستحداث نظام الســـنوات والامتحانات وتنظيم أوقات الدراسة وتخصيص بناية للتعليم ومعلمين متفرغين. ومتابعة المناهج الحديثة في طرق التعليم[1]. ولا تزال هذه المدارس القرآنية في تطـــور واتســـاع مطرد في كل مدن مـــيزاب. وقد ظهر أثرها بارزا في الحياة العامة. إذ رفعت رايتها الجمعيات الخيرية واحتضـــنها الناس لما لمسوا من جدواها على المجتمع قاطبة.

عـــلىٰ أن إنشاء هذه المدارس لم يكن أمرا ميسورا أول الأمر، فقد أدرك الشيخ بـــيوض أن إنشاء المدارس الحديثة له أثر بعيد يحقق دورها التربوي، وذلك بمتابعة الـــتطور في الوسائل للتحصيل المعرفي مع المحافظـــة على الثوابت من الدين والقيم الخلقية. غير أن هذا التوجه كلف الشيخ بـــيوض جهـــادا مريرا مع خصومه ممن أوجبوا التقليد في كل شيء، ورأوا هذه المدارس خصما للدين والأصول، بل واتهم الـــبعض الشيخ بنشر الكفر والضلالات فـــيها. ولكـــنه صـــبر وصابر حتى اقتنع خصومه بصواب خطه فاتبعوه حذو النعل بالنعل.

ويأتي معهد الحياة حلقة متصلة بمرحلة التعلـــيم الأولى حيـــث يأخذ التلميذ في الابـــتدائي أسس الكتابة والقراءة ومبادئ الديـــن والأخلاق. يتوجها بحفظ القرآن

---

1) – حول نشأة المدارس العصرية في وادي ميزاب، وتطورها ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصـــلاح في الجزائر. ج5، صفحات20 فما بعد.

الكـــريم كاملا كشرط أساسي يسمح له بالانخـــراط في حلقـــة حفظة كتاب الله المعـــروفة باسم "هيئة إروان"، ثم الدخول إلى المعهد. ودون ذلك لا يسمح للطالب بنيل شرف الانتساب إلى معهد الحياة(1)

واشـــتراط حفـــظ القرآن للمنتسب لـــلمعهد له أثر كبير على الجانب المعرفي والجانـــب السلوكي معا، فالقرآن مصدر المعـــارف وأم العلـــوم. وهو قبل ذلك دســـتور المســـلم في حياته كلها، ومنبع الفضيلة والأخلاق(2).وتتميز برامج معهد الحـــياة بالتكامل الذي يجسد نظرة الشيخ بـــيوض إلى التربـــية. فهي شاملة لعلوم الشريعة واللغة والعلوم العصرية المختلفة. وكانـــت في بداية نشأة المعهد محدودة ثم تطـــورت عبر السنين. وتوالي التجارب والاستفادة من مؤسسات عريقة في العالم الإســـلامي كالأزهـــر في مصر والزيتونة بتونس. وأدخلت ضمن هذه المناهج أيضا مـــادة التربية وعلم النفس وفن التعليم. وغيرها(3).

واتخذ المعهد له شعارا اختصر رسالته بإيجاز واف وهو

"الدين والخلق قبل الثقافة ومصلحة الجماعة قبل مصلحة الفرد"

والغايـــة التي يجب أن يجعلها الطالب نصـــب عينـــيه في أول خطواته بالمعهد،

---

1) –.يـــنظر: في رحاب القرآن، المهرجان والـــتأبين. لقاء التلفزيون مع الشيخ بيوض. ص 76.محمـــد عـــلي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص39.

2) – محمـــد عـــلي دبـــوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص39.

3) – عـــن نظـــام معهد الحياة الدراسي، وتطـــور بـــرامج التعليم ومحتوياته، ينظر: محمد عـــلي دبـــوز، نهضـــة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، صفحات 41 فما بعد. –شريفي سعيد، معهد الحياة نشأته وتطوره.

تنحصر في هدفين:

أولهما طلب رضوان الله تعالى، ونيل شرف العلم ونفي الجهل عن نفسه.

وثانيهما: تكوين الملكات العلمية وتثقيف العقل وتربية النفس تربية صحيحة، وإعدادها لتحمل أعباء الإصلاح، وخدمة الدين والأمة والوطن[1].

أثر شخصية الشيخ بيوض على تلاميذ المعهد:

من المعلوم لدى علماء التربية أن لشخصية الأستاذ أثرا كبيرا على تحصيل التلاميذ للمعارف والمهارات فضلا عن الخصال والصفات، سلبا أو إيجابا. ولذلك ينصح الخبراء أن يكون الأستاذ المثل الأعلى للتلميذ في هذه الجوانب سعيا للبلوغ بالعملية التربوية إلى قمتها المنشودة.

وقد مر الشيخ بيوض بالتجربة نفسها زمن التلمذة، ويذكر أثر أستاذه الحاج إبراهيم لبريكي فيه قائلا: «إن هذه المدة في معهد شيخي الأبريكي هي أهم فترات التعلم والتكوين في حياتي، فهي التي كونت عقلي وضميري، ومكنتني من أصول الشريعة ومبادئها، والنحو والتاريخ وتاريخ الصحابة رضوان الله عليهم»[2].

وبعض خصائص الأستاذ صفات مكتسبة، وبعضها خصال موهوبة. وقد جمع الشيخ بيوض منها ما أهله ليكون المعلم المثالي، دون مبالغة. إذ كان قوي الشخصية موفور المواهب، حاد الذكاء، دقيق الملاحظة، بليغا فصيحا، واسع

---

1) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص23.

محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ص23.

2) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. ج2. ص 120.

الصدر، بشوش الوجه، مخلصا متفانيا في رسالته.

يصفه تلميذه الشيخ محمد علي دبوز بأنه: «كان قوي الشخصية، يشعر به التلميذ يغشاه من كل نواحيه، ويؤثر فيه في كل جهاته، وكان لشدة صفائه وحسن طريقته وعمله لله سبحانه وتعالى، وحبه لتلاميذه حبا دونه حب الوالدين البارين لوحيدهما. ولشخصيته الأدبية الظريفة، ولحسن عشرته وبالغ لطفه، كان لهذه المزايا كله يحبه تلاميذه حبا جما، وصار هو مثلهم الأعلى»(1).

وكان إلى جانب التأثير العملي بسلوكه يركز على البناء النظري للقيم الخلقية بالاهتمام بدرس الأخلاق، وكان درسا أسبوعيا. ويعتبره أحد أبرز تلامذة الشيخ من أول المكونات الجديرة بالاعتبار التي صاغت نفوس الطلبة على مثال مستقيم. وكان معتمد الشيخ في هذا الدرس على كتاب "عظة الناشئين" لمصطفى الغلاييني، و"طبائع الاستبداد" للكواكبي، و"الشخصية" لعطية الإبراشي، ومختارات من شعر أحمد محرم، ومحمود غنيم، وغيرهم من فحول الشعراء. «وكان لمادة الأخلاق في نفوسنا أبلغ الوقع، لأنها تصدر من مصلح خبير حلب الدهر أشطره، وموهوب قدير في استحضار الأمثال، عربية وعامية، مما ينير مراحل الدرس ويكسوه رونقا وحيوية، ويفعمه جمالا وجلالا»(2).

وكان لشخصية الشيخ بيوض حضور قوي في تلاميذه بالمعهد. تجلى ذلك في إنتاجهم الأدبي شعرا ونثرا، واتخذوا من مجلة الشباب ميدانا للتباري في الكتابة

---

1) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. ج3. ص23.

2) – حمو بن عمر فخار، دور معهد الحياة في الإصلاح. بحث مرقون بخوزتي. ص5.

والإبداع. ووجدنا أثر الشيخ وتوجيهاته بارزة في هذه الكتابات. شحذا للهمم وتفجيرا للطاقات وطموحا للمعالي، وسعيا لخدمة الصالح العام، قياما بالواجب وابتغاء رضوان الله أولا وأخيرا.

بهذه الروح غرس الشيخ في طلبته الطموح والسعي بلا حدود، للاستزادة من معين العلم والمعرفة، واتخذ لهم شعارا قول الشاعر:

شباب قنع لا خير فيهم

وبورك في الشباب الطامحينا

وكان يصرح أن أغلى ما يتمناه أن يثبت هذا الغرس في نفوسهم، ويذيقهم حلاوة العلم بعد حلاوة الإيمان، ثم يترك الفتى بعد ذلك ينهل من معين العلم ما يشاء.

وأنجب المعهد للجزائر والعالم الإسلامي رجالات كانوا في الصدارة في مختلف مجالات الحياة، أساتذة في الجامعات، ومؤسسات التعليم بمختلف مراحلها. وأئمة في المساجد، ومسؤولين في الإدارات، وأرباب تجارة وصناعة. وأهل مهن وفلاحة. شرفوا المعهد وشرفوا به. وكلهم برهان صدق على براعة الشيخ وعمق الأثر الذي تركه في وجدانهم وضميرهم.

ويمكن تلخيص **طبيعة علاقة الشيخ بتلامذته** في نقاط محددة:

1) فقد كان يحبهم حبا شديدا ويصرح بحبه لهم ويدرك مدى تأثير هذا الإعلان في نفوسهم ونتيجته العملية في حياتهم العلمية والاجتماعية.

وقد صرح بذلك في خطبته التاريخية عقب إنشاء جمعية قدماء التلاميذ سنة 1948م ومما قاله فيها: «أبنائي البررة إن سروري باجتماعكم اليوم أضعاف ما تشعرون به، لأن كل غبطتكم وانعطافكم على بعضكم كليهما منسكبان في نفسي على عدد أشخاصكم...إن القلب ليخفق

للكـــلمة أسمعها من أحدكم في الهاتف، ويخفق للرسالة القصيرة واللقاءة الخفيفة. ولـــو علمـــتم ما أحمل من هذا الحب في نفســـي لواصلتم إلي الكتب، ولو كنتم تحســـون مثـــلي بهذا الإحساس لخلقتم الفـــرص للاتصال بي بالحديث وبالكتاب وبالزيارة.

أبـــنائي الأعزاء إن سروري أكثر من كـــل سرور بميل بعضكم لبعض، والحب الشـــديد الذي يربط بينكم. وإني أعزو ذلـــك إلى أثر حبي الذي أفضته عليكم، وأعـــزو إلـــيه كل ما يستقبلكم من فوز ونجاح»[1].

2) عـــناية مركـــزة بـــأحوالهم الاجتماعية والمادية، وتحريض الناس على احتضـــانهم، حـــتى يـــتفرغوا لرسالتهم العلمية.

3) تشجيعهم على مواصلة مسيرة التعلم دون الوقوف في منتصف الطريق، أو القناعة بمستوى غير مرموق. بل كان يحفـــزهم عـــلى تحمـــل الأخطار وعدم الاكتراث بالعقبات مهما كانت كأداء. ويزودهم بدعوات الخير ليفتح الله لهم من خزائن العلوم فيبلغوا فيها شأوا بعيدا. ومما قالـــه لأحد تلامذته الذي توجه للدراسة العليا في إحدى الدول الغربية، وقد كان هـــذا الطالـــب مترددا في أمره، يخشى عواقب المخاطرة، فشجعه الشيخ برسالة محفزة، ضمنها هذا البيت الحكيم:

وإذا العناية لاحظتك عيونها

(لا أقـــول لك "نم" بل أقول:) **"سر"**

فالمخاوف كلهن أمان

4) ملء قلوب أبنائه إيمانا وصبرا وتضحية لشق غمار الحياة وتبليغ الرسالة بصـــبر وثبات وتحمل ما فيها من أهوال وتبعات.

---

1) – محمـــد عـــلي دبـــوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة. ج3. صفحات 196/ 197.

5) تركيز حقيقة دورهم ورسالتهم في الحياة. ومما يبين ذلك ما قاله لهم في خطابه التاريخي يوم إنشاء جمعية القدماء: «أريد من كل واحد منكم أن يكون له أثر في المركز الذي يوجد فيه. لا أريد أبدا أن يكون كمية مهملة، تمر الشهور والأعوام ولا يحس له أثر، ولا يسمع له صوت، ولا يظهر له عمل. المشاكل في ميدان الحياة كثيرة، والخلافات بين الأفراد والجماعات تحدث كل يوم في كل قرية ومدينة، فاقتحموا ميادين الإصلاح. فضوا المشاكل بالحلول المرضية، وسووا الخلافات بالعدل والحكمة، فإنكم بذلك تفرضون وجودكم وتعرفون بأنفسكم. وتحملون الناس على احترامكم، وتعلمون الأمة كيف تنقاد للمثقفين، وهذا لا يكون إلا بصفاء القلب، وطهارة الضمير، وإخلاص النية في القول والعمل. وإياكم والعنصرية فإنها الداء العضال... لا تكن غايتكم أن تسودوا ولا أن تتصدروا. وإنما عليكم أن تعملوا الخير لأنه خير وكفى. فإذا حملتم على صدارة أو رئاسة، أو سيادة فلا تدفعوها فرارا من المسؤولية إن استشعرتم الكفاءة، بل أقدموا غير هيابين ولا وجلين»(1).

6) رعاية الموهوبين من الطلبة رعاية خاصة تختصر لهم الطريق وتشجعهم لبلوغ أعلى الدرجات. وقد يكون بعض هؤلاء الموهوبين من عائلات محتاجة فيسعى بجهود أهل اليسار للتكفل بنفقات تعليمهم ودعمهم إلى آخر المطاف(2).

ثم يرسل هؤلاء النجباء في بعثات

---

1) – محمد علي دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، صفحات 206/ 207.

2) – ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص32.

علمية خارج بلدهم للدراسات العليا، في تونس أو القاهرة أو غيرها. يقول الدكتور صالح الخرفي: «والبعثات العلمية من وادي ميزاب إلى تونس مظهر من مظاهر التكافل الاجتماعي في العلم والمال. فالبعثة تكون عادة على نفقة جماعية تتولاها العشيرة أو القرية التي ينتسب الطلبة إليها. وقد لا يتحمل ولي الطالب أية نفقة في مهمة طلب العلم، كما قد يتحمل هذه النفقة ذو سعة في المال ليست له بالطالب علاقة نسب أو قرابة. ويتم اختيار المبعوثين على أسس موضوعية تعود بالأساس إلى تفوقهم في الدراسة واستعدادهم للتوسع فيه خارج الجزائر.

وأنا أحد الذين يدينون بالفضل لهذا النموذج الفريد من التكافل الاجتماعي، وهو ما ندعو إليه اليوم على صعيد الوطن العربي ونسميه بقومية المعرفة، وهو أن تكون مسؤولية الحصول على المعرفة مسؤولية جماعية يتكافل فيها العلم والمال، ويتساند فيها الغني والفقير، والمقتدر والعاجز. لأن حصيلة المعرفة في النهاية شاملة للجميع، وفي خدمة الكل، وليست مقتصرة على صاحبها»[1].

7) حرص الشيخ بيوض الشديد على بلوغ الطلبة نهاية مراحل التعليم، وعدم انقطاعهم عن المسير، مهما كانت الأسباب، وقد كانت له جلسات عديدة وطويلة مع المنقطعين وأوليائهم لدراسة العوائق التي حالت دون إكمالهم مسار التعليم، والسعي الحثيث لعودتهم إلى حظيرة العلم. كما كان يحرض عامة الناس في دروسه على أن يوفروا لأبنائهم الجو المناسب للتحصيل، ويدعوهم مستفرغين للعلم، ابتغاء الأجر الأخروي أولا، وانتظار النفع العام للأمة والوطن

---

1) – د. صالح الخرفي، من أعماق الصحراء، ص18. ينظر أيضا: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، ص33.

أخيرا[1].

8) عناية خاصة أيضا بالمنحرفين واتخاذ كل الوسائل لاحتضانهم حتى يعودوا إلى جادة الصواب. لأن خسارتهم ليست محدودة بأسرهم فحسب، بل هي خسارة لأمتهم ووطنهم جميعا. وأثر المنحرفين وخيم العواقب على جهود المصلحين والعاملين.

الجانب العملي في تربية الشيخ بيوض::

اهتم الشيخ بيوض بالربط بين النظري والعملي في برنامجه التربوي. سواء في مجال التحصيل العلمي الصرف أم في مجال التكوين النفسي والتأهيل الاجتماعي.

والشيخ يؤمن أن الطلبة لا يتعلمون بمجرد التلقين والحفظ، بل لا بد من ممارسة ترسخ المعلومات وتوضح المبهمات. ولا أجدى للطالب لإتقان علمه من التطبيق. فقد أنشأ نظام الجمعيات الأدبية ملحقة ببرامج الدراسة النظرية بالمعهد، وفيها يتدرب الطلبة على توظيف حصيلة معارفهم النظرية في مقالات وخطب وقصائد شعرية ومساجلات أدبية ومجلات ثقافية وإذاعة مسوعة. ويتدربون على الشجاعة الأدبية التي تؤهلهم لتحمل المسؤولية والتقدم إلى مواقع الصدارة بجدارة.

وسميت هذه الجمعية بجمعية الشباب، ترأسها الشيخ عدون. وكانت في بداية أمرها سرية، نظرا للرقابة الاستعمارية المشددة على نشاط الجمعيات.

وكانت مجلة الشباب التي يصدرها طلبة المعهد مجالا رحبا لتباري الأقلام وتدريبها على الكتابة الأدبية، تناولت بالبحث والتحليل مختلف القضايا الفكرية والاجتماعية والوطنية.

ونضجت التجربة بمرور الزمن، وأثمرت أقلاما أدبية بارزة في الساحة

---

1) – ينظر: محمد علي دبوز، أعلام الإصلاح في الجزائر، ج5، صفحات 32/31.

شعرا ونثرا، ولا يزال أرشيف مجلة الشباب شاهد صدق، وصورة ناطقة عن ذلك النشاط الذي احتضنه معهد الشيخ بيوض وصهر فيه طاقات الشباب، فصقل الألسنة وثقف العقول وسدد الأقلام[1].

يصف الشيخ حمو فخار أثر الجمعيات الأدبية التي «تدربنا على صهواتها في تحرير المقالات، وجربنا الهذيان بالشعر حتى قرضناه، والتطفل على النثر إلى أن أجدناه، وحاكينا الفحول في صوغ النشيد فأسلس قياده لنا، وأتينا بالرائع المفيد. ذلك الشيء الذي حقق لنا مستقبلا مرموقا زاهرا في مجال التأليف وعالم القريض. وما الأسماء اللامعة اليوم في سماء الجزائر من خريجي معهد الحياة إلا وليدة مجلة الشاب، الساحة الرحيبة لتدريب الأقلام»[2].

كما شجع النشاط الرياضي والكشفي وباركه ودفع بأبنائه إلى هذه الميادين فبلغوا فيه مراتب ونالوا فيه شهادات بارزة على مختلف المستويات.

والمجال الأهم في التربية العملية إنشاء الشيخ لنظام البعثات العلمية التي تفد إلى القرارة من خارجها. إذ خصص لهم دارا تأويهم ومسؤولين يرعونهم ويعنون بمصالحهم. ويرى الشيخ حمو فخار أن دار البعثات أو داخلية الحياة ثكنة جنود بأتم معنى الكلمة، وأن التكوين فيها هو أهم تربية يحظى بها طالب المعهد[3].

---

1) – من بين أبرز الأدباء الذين أنجبهم معهد الحياة، الدكتور صالح الخرفي، الدكتور محمد ناصر، الشاعر محمد الأخضر السائحي. الشاعر صالح باجو، المؤرخ محمد علي دبوز، الكاتب الإسلامي والمؤرخ الأديب علي يحي معمر، الأستاذ حمو فخار، الأستاذ سعيد محمد (كعباش). وغيرهم كثيرون.

2) – حمو بن عمر فخار، دور معهد الحياة في الإصلاح. بحث مرقون بحوزتي. ص7.

3) – حمو بن عمر فخار، دور معهد الحياة

كـــان الطلبة في فجر نشأة البعثة من الكـــبار البالغين، ممن أنهوا مرحلة التعليم الابـــتدائي، و لم يكـــن يسمح لمن دونهم بالالـــتحاق بها، والطالب في هذه السن يكـــون قادرا على التكفل بنفسه، وتلبية مطالـــبه. فكان المعتمد الأساس في قضاء حوائـــج الطلبة هو الاعتماد على النفس. والـــتعود على شظف العيش، والتدرب لتقلبات الأيام. وعدم الاستنكاف عن أي عمل يكلف به الطالب مهما كان مهينا في نظـــره، اعتمادا على الشعار الحكيم "سيد القوم خادمهم".

ولضـــمان التطبـــيق الصـــارم لهـــذا الأسلوب، يعلق برنامج دقيق للخدمات العامة للجماعة، فيها يتولى الطلبة أعمالا يومية وأسبوعية وشهرية وموسمية، ويقوم كـــل طالب بمهمته بانتظام وتوزيع دقيق ومحكم للمسؤوليات.(1).

ولئن كان المعهد مركز تكوين نظري للطلبة في مختلف العلوم، فإن داخلية الحياة

---

1) – مـــن الأعمـــال اليوميـــة للطلبة في الداخلية إعداد الطعام بالتداول، واستمر الحال على ذلك إلى سنة 1941هـــ، إذ كثر عددهم فخصـــص لهم طباخ يتولى هذه المهمة، وتعينه مجموعـــة مـــن الطلبة. وكان سقي الماء العذب أيضـــا من المهمات اليومية. قبل تفجير العيون الارتوازيـــة في القرارة، سنة 1948. إضافة إلى تنظيف الدار. ومن الأعمال الأسبوعية تنظيف الغـــرف وإخـــراج كل الفرش إلى سطح الدار وغسل ثياب، وكسر الحطب للوقود قبل مجيء الغـــاز. أما الأعمال الشهرية فمنها قطع جذوع الـــنخل ونقـــلها من الغابة إلى مكان مخصص لتجفـــيفها ثم تقطيعها بعد ذلك. ومن الأعمال الموسمية تأبير نخل البعثة وقطعه، ونقله وتخزينه في موسم الجذاذ. والمشاركة في الحملات التطوعية للبلدة كلما دعوا إليها.

بحث حول "تاريخ داخلية الحياة" من إعداد طالب خريج معهد الحياة.

في الإصلاح. بحث مرقون بحوزتي. ص7.

ميدان تطبيقي لما يتلقاه من توجيهات خلقية عالية، وتدريب لهم لخوض غمار الحياة العملية، ليجمعوا بين العلم الصحيح والعمل الجاد والدؤوب، في التعليم والإدارة والصناعة والتجارة. وهذه النظرة هي الطريق الأصوب لتحقيق النهضة المنشودة، «فنهضات الشعوب لا يمكن أن تكون فكرية وعلمية فحسب، بل لا بد أن تحميها النهضة الاجتماعية والاقتصادية، فالتكامل والشمول هو الذي يضمن لها البقاء والاستمرار والتوازن والاكتفاء. ولذلك رأيناهم رغم الحاجة الملحة للمعلم لا يضيقون بدخول بعض المتخرجين في العمل الاقتصادي إذا كانت ظروفهم العائلية تقتضي ذلك، و لم يسقطوا يوما من حسابهم أهمية الإصلاح في الميدان الاقتصادي، ولا أقول: إنهم أهملوا الجانب العملي، ولكنهم وازنوا بين الإمكانات والمطالب فقرروا الأولويات تبعا لذلك. وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، فكانت نهضة الإصلاح متوازنة ومتكاملة كما نشاهد اليوم. والحمد لله. وهذا فيما أعتقد هو الهدف الذي ترمي إليه المدرسة الجزائرية اليوم بربط التعليم بالتنمية»(1).

وفي دار البعثة يلتزم المنتسب بالنظام الصارم في الحياة اليومية، بدءا بالقيام لصلاة الفجر جماعة حتى آخر ساعة في المساء، ينتقل بينها من دراسة إلى مطالعة إلى أعمال جماعية إلى نوم واستراحة إلى أكل ونظافة، وهكذا دواليك. وإن كان برنامج آخرالأسبوع متميزا بالذهاب إلى البساتين للاستجمام أو غسل الثياب أو الرياضة.

وفي البعثة يتدرب الطالب أيضا على الاقتصاد في المعيشة. ويرى بأم عينيه

---

1) – بحث حول تاريخ داخلية الحياة. أعد بمناسبة الذكرى السبعين لنشأة معهد الحياة، من أحد خريجي المعهد. البحث مرقون بحوزتي. ص 5.

أيادي المجتمع ومساعداتهم له ليجتهد في التحصيل. ويقدر النعمة قدرها ويعرف لأهل الفضل فضلهم، فيسعى لرد الجميل بخدمة الناس ورعاية المحتاجين جزاء وفاقا.

وقد كان للبعثة العلمية أدوار مرت بها عبر تاريخها الطويل، حسب تطور الزمن وتنامي أعداد أفرادها، واستحدثت بها أنظمة تواكب هذا التطور وتسعى لتوفير الجو المناسب للطالب حتى يتفرغ لرسالته العلمية بكل طمأنينة وراحة بال.

وتولى رئاسة البعثة خريجوها من تلامذة الشيخ المخلصين، وإن ظلت دوما تحت رعاية الشيخ بيوض واهتمامه، يوليها ما تستحق من عناية خاصة تناسب شعور الطالب البعيد عن أهله ووطنه المتفرغ لرسالته العلمية، الطموح لبلوغ أعلى المراتب والدرجات. فكان الشيخ يخص أبناء البعثة بمودة خاصة وينفحهم بزيارات متوالية، ويتابع أخبارهم ويحل مشاكلهم كلما دعت الحاجة إلى ذلك.

ويزودهم بتوجيهاته في لقاء الوداع قبل العودة إلى أوطانهم آخر كل سنة دراسية[1].

كما تميزت تركيبة أفراد البعثة من عناصر مختلفة المشارب والمواطن، ومتفاوتة النفوس والمواهب، فهم يكونون مجتمعا صغيرا بكل ما تحمله كلمة المجتمع من معان وخصائص. والحياة في هذا المجال فرصة ثمينة للتدرب على خوض غمار المجتمع الكبير بعد التخرج، والنزول إلى الميدان.

ولم يخل جو البعثة من النشاط الأدبي شبيها بنشاط المعهد في دروسه النظامية وجمعياته الأدبية، مما أضاف فرصة لأبناء البعثة في التكوين ورصيدا في المعرفة والتجربة. ونشطت الفرق المسرحية والمجلات الحائطية والإذاعة المحلية وازدهرت سوق الإنتاج الفكري

1) – المرجع السابق، ص 8. و ص13.

والمطارحات والمساجلات، فأفاد منها الطلبة فوائد لا تقدر بثمن[1].

يصف الشيخ حمو فخار الجو الداخلي في هذه الدار إذ فيها «تعلمنا تحمل المسؤولية وخدمة الجماعة فطرقناها بابا، من إماطة الأذى من المرحاض والإسطبل، إلى تلقين كلمة "لا إله إلا الله" للبالغ والطفل، ومن غسل الأواني وتسلق جذوع النخل، إلى تقلد رئاسة الداخلية، وما بين ذلك كثير...

وفي الدار عرفنا أن الدنيا تؤخذ غلابا، وأن سيد القوم المتغابي لا الغبي... حيث عايشنا فيها نماذج السلطة والحكم وبلوناها، من استبداد وديمقراطية، وميكافيلية وفوضوية، وحزبية...

فلو جاز لشاب أن يتفصى من الخدمة الوطنية –وليس ذلك من رأينا– لأبيح لمن ترعرع في مثل هذه الداخلية[2].

لأجل هذه المميزات، كان للنظام الداخلي في دار البعثة أثر هام على نهضة ميزاب العلمية ومسيرتها الإصلاحية، وعلى الجزائر وخارج الجزائر أيضا. فقد تخرج فيها رجال تولوا مهام بارزة في حقول العمل الديني والعلمي والاجتماعي والإداري والسياسي، فكان منهم الإمام والقاضي، والوزير والسفير، والمدير والدكتور، والتاجر والصناعي، والفلاح والعامل. وكانوا جميعا رسل خير ونماذج تحتذى في مواقع عملهم. وكلهم يعزو الفضل في نجاحه إلى أسلوب التربية لذي نشأ عليه في دار البعثة وتوجيه الشيخ بيوض وتلامذته الذين رباهم الشيخ فكانوا معه أساتذة بالمعهد، وواصلوا المسير بعده في بناء

---

1) – المرجع السابق، صفحات 11/10.

2) – حمو بن عمر فخار، دور معهد الحياة في الإصلاح. بحث مرقون بحوزتي. صفحات8/7.

الأجيال، وفق منهج القرآن ومفهومه للحياة كما عناه الحق بقوله: ﴿يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾(1). ولأجل ذلك سمى الشيخ بيوض معقله الشامخ "معهد الحياة".

مصادر البحث:

1. إبراهيم بيوض، **أعمالى في الثورة**، نشر جمعية التراث، القرارة، غرداية.
2. أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني، **طبقات المشايخ بالمغرب**، دار البعث، قسنطينة. د.ت.
3. ابن منظور، **لسان العرب. من القرص المدمج: الموسوعة الشعرية**، الإصدار 1.0. المركز الثقافي، أبو ظبي. الإمارات العربية المتحدة.
4. بكير بن سعيد أعوشت. **الإمام إبراهيم بيوض وجهاده الإسلامي في الجزائر**. المطبعة العربية. غرداية. 1987.
5. **تاريخ داخلية الحياة**. بحث من إعداد أحد خريجي معهد الحياة، عاش في داخلية الحياة بين سنتي 1937و1947م. و لم أجد اسمه في البحث.
6. جمعية التراث. **في رحاب القرآن. المهرجان والتأبين**. طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. الرغاية. الجزائر. 1989. وفيه خطب ومقالات حول تاريخ الشيخ بيوض.
7. حمو بن عمر فخار، **دور معهد الحياة في الإصلاح**. بحث مرقون بحوزتي.
8. سعيد إسماعيل علي، دكتور. **الأصول الإسلامية للتربية**. دار الفكر العربي، القاهرة. 1412هـ/1992.
9. سعيد شريفى (الشيخ عدون)، **معهد الحياة، نشأته وتطوره**. المطبعة العربية، غرداية. 1989.
10. د.صالح الخرفي، **من أعماق الصحراء**. دار الغرب الإسلامي. بيروت.لبنان. 1992.
11. محمد علي دبوز- أعلام الإصلاح في الجزائر، ۞ ج1، مطبعة البعث، قسنطينة، 1394هـ/1974م. ۞ ج2، 1396هـ/1976م. ۞ ج3، 1398هـ/1978م. ۞ ج4، 1400هـ/1980م.
12. محمد على دبوز، نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة، ج3، ط1. المطبعة العربية، الجزائر. 1389هـ/1969م.

---

1) – سورة التوبة، آية24.